التحصينات العسكرية لمدينة هُنيْن

الدكتور/ محمـــد بن حمـــو

قسم الآثار/ جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.

الملخص:

هُنيـــن:(أنظر اللوحة1)

نريد في هذا المقال أن نتحدث عن مدينة هُـــنين وعلـــى تحصـــيناتها العسكرية، وما هي أهم التغييرات التي طرأت عليها، وما مدى أهمية أســـوارها وأبراجها في الحفاظ على المدينة، وقبل الحديث عن هذا كله يتوجب علينـــا أن نتطرق إلى تاريخ المدينة والأحداث التي مرت عليها، وما طرأ عليها من تغيير في عمرانها وبالتحديد مبانيها فنقول:

مدينة هنين مدينة ساحلية تابعة لمدينة تلمسان بالغرب الجزائري، وتقع في الجهة الشمالية الغربية منها على طريق بني صاف، وتبعد عنها بمرحلتين[1] أي بحوالي 75كلم وعلى خط مستقيم بحوالي 45كلم[2]، وتبعد بحوالي 40كلم عن حدود المغرب[3]، وهي تقابل مدينة المرية الأندلسية وفي مستواها[4]، يقول البكري

---

1 – أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيـــا**، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982م، ص140 .

2- أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492–1792**، ط1، دار البصائر حسين داي–الجزائر، 2007م، ص217.

3- Marçais. G, **Mélanges D'Istoire Et D'Archéologie De L'Occident Musulman**, T1, imprimerie officielle du gouvernement général de l'Algerie, trollier-Alger, 1957, p162 .

4- مارمول كربخال، **إفريقـــا**، ج2، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، 1408هـ/1988-1989م، ص296 .

أن حصن هنين يبعد عن حصن الوردانية بأربعة أميال وبين هذا الحصن ومدينة ندرومة الجبل المعروف بتاجرة، والمسافة بين الحصن (أي هنين) والمدينة (أي ندرومة) ثلاثة عشر ميلا[1]، ويقول مارمول أنها تقع شرقي مدينة تبحريت*[2]، يحمي هنين رأس بحري من جهة البحر ومن خلفها نجد غابات كثيرة، ويشرف عليها جبل تاجرا الذي تبلغ قمته 861م[3].

أما عن تاريخها القديم فلا نعلم على وجه التحديد متى بنيت، فلعلها هي Gypsaria التي ذكرها بطليموس، أو Coecilli التي ذكرها أنطونين Antonin[4]، أما في الفترة الإسلامية فيقول ابن خلدون أنها كانت تابعة لتلمسان قاعدة المغرب الأوسط[5]، في حين أن صاحب كتاب الجعرافيه يجعلها تابعة للمغرب الأقصى[6]، وهذا مقبول منه لأنه متوفي في القرن السادس الهجري

1- أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب **المسالك والممالك**، دار الغرب الإسلامي-القاهرة، ص80.

*- تبحريت مدينة أسسها الرومان وكأنها قلعة عند قدم صخور كبيرة وعرة، تفضي إلى مدينة هنين على شاطئ البحر، أنظر:

- مارمول كربخال، مصدر سابق، ج2، ص296 .

2- مارمول كربخال، مصدر سابق، ج2، ص296 .

3- **TLEMCEN**, Guide Touristique De Tlemcen et Sa Région, Office De Tlemcen, 1994, p110.

4- Edouard charton, **Tour Du Monde**, Librairie Hachette Et G, paris, lindre, 1875, p342 .

5- عبد الرحمن بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**[كذا]، ج1، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت-لبنان، 1421هـ/2001م، ص76. وانظر:

- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، **معجم البلدان**، ج5، دار صادر- بيروت، 1397هـ/1977م، ص420 .

6- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، **كتاب الجعرافيه**، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد-مصر، ص113 .

أي في العصر الموحدي، وفعلا كانت آنذاك بل وقبل ذلك تابعة لهـذا القطـر الشقيق، وذكرها ابن خلدون بثلاثة أسماء هَنين[1] وهني[2] وهُنين[3] وهـو الإسـم الذي لا تزال تُعرف به المدينة إلى الآن، أما الناصر فيذكر لها اسمـين آخـرين أهناي وأحناي[4]، يقول مارمول أن هنين أسسها الأفارقة القدامى، أما البكـري فيحدد بأنها مسكونة بقبيلة كومية*[5]، ويوضح ابن خلدون بأن موطنهم كـان بالمغرب الأوسط من ناحية أرشكول(يعني أرشقون) وتلمسان[6]، ويضيف أبـو راس بأن جبلهم وسط جبال أطرارة مطل على هنين[7].

والآثار الباقية تدل على وجود مدينتين أي مدينة في السفح أمام الميناء (أنظر اللوحة 1) والأخرى قصبة في الأعلى، تشغل الأولى حيز مربع منحـرف قياسه حوالي 320م/350م معظم السور الدائري بقي وهو عبارة عن جـدار من تراب مدكوك(طابية) بعرض حوالي مترين يعلوه ممر دائري تدعمه أبـراج

1- ابن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص76، وج6، ص166 .

2- نفس المصدر، ج7، ص121 .

3- نفس المصدر، ج7، ص156، 339، 398 .

4- محمد بن أحمد أبي راس الناصر، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، تقديم وتحقيق محمد غانم، مركز البحث في الأنثربولوجيا الإجتماعية والثقافة، وهران-الجزائر، 2005م، منشورات CRASC، ص103 .

ويذكر المزاري إسم أهناي وهنين أنظر: - الآغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**،تحقيق ودراسة يحيي بوعزيز، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت-لبنان، 1990م، ص143 .

*- كومية هم المعروفون قديما بصطفورة ... وهم من ولد فاتن ... ولهم ثلاث بطون منها تفرعت شعوبهم وقبائلهم وهي ندرومة ومغارة وبنو يلول . أنظر:

- ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص165-166 .

5- البكري، مصدر سابق، ص80 .

6- ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص166 .

7- أبو راس الناصر، مصدر سابق، ص103 .

مربعة، ونجد مجرى لواديين متوازيين يحفان المدينة في الجهة الشمالية الشرقية والشمالية الغربية، وهما واد هنين وواد ريغو Rigou[1]، أما القصبة التي تقع في الجهة الجنوبية الغربية للمدينة(أنظر اللوحة1) (و الظاهر أنها هي المدينة القديمة إذا طبقنا عليها شروط المدينة في العصر الوسيط) فقياسها حوالي 100م جدار الشمالي، 80 الجدار الجنوبي، 80 الجدار الشرقي، 65م الجدار الغربي.

تظهر هنين في التاريخ كمدينة لها شأن في العصر الموحدي، فلقد توطدت الدولة الموحدية على يد عبد المؤمن بن علي الكومي الذي يرجع أصله إلى أحد أشرف بيوت بني عابد الكومية التي كانت تقطن بتكرارت[2] أو تاجرة[3] وذكر أبو راس أنه من بني عامر[4] ولعله تصحيف من المحقق أو المطبعة، وبالتالي فقد صارت هذه القبيلة من أعظم قبائل الموحدين لأنهم رهط عبد المؤمن وأهله.

لما ضعفت الدولة الموحدية وقسمت تركتها بين بني حفص في المغرب الأدنى وبني زيان في المغرب الأوسط وبني مرين في المغرب الأقصى، أصبحت هنين من ميراث الزيانيين، إلا أن الخلافات المتواصلة بين بني مرين وبني زيان بصفة خاصة فرضت على هنين التأرجح بينهما، فتارة تصبح تابعة لتلمسان وأخرى لفاس، وأحيانا أخرى لقبائل العرب[5] إذا ما ضعفت السلطة المركزية لكل من الدولتين.

1- Marçais. G, op-cit, p166-167 .

2- هذا ما ذكره عبد الرحمن بن خلدون، أنظر:- ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص166 .

3- أنظر:- ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج5، ص419 . – المزاري، مصدر سابق، ج1، ص143 .

4- أبو راس الناصر، مصدر سابق، ص103 .

5- أنظر مثلا: - ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص80-81 .

ميناء هنيـــــن (أنظر اللوحة1)

لا نعرف على وجه التحديد متى استعمل ميناء هنين، فلربما كان ميناءً للفينيقيين الذين كانوا سادة البحر الأبيض في زمنهم والذين استقروا بدورهم في معظم الساحل الإفريقي، ولعل الرومان استعملوها كميناء ثانوي باعتبار قربهـــا من ميناء أرشقون والذي كان له دور كبير في بناء الحضارة آنـــذاك، أمـــا في العصر الإسلامي فلم نجد ذكرا لمرسى هنين كمرســـى مهـــم إلا في العصـــر الموحدي، ولا مانع من أنه استعمل من قبل خلال الخمســـة قـــرون الأولى إذا أخذنا بعين الاعتبار الأحداث الكثيرة والمتشابكة التي حدثت في هذا القطر.

أما في العصر الموحدي فنجد بأن صاحب كتاب الإستقصا يذكر بـــأن السلطان الموحدي عبد المؤمن أمر بإنشاء الأساطيل للغزو في جميـــع ســـواحل مملكته وذلك سنة 557هـــ، فأنشأ 120 قطعة بالمهدية و100 بطنجة وسبتة وباديس ومراسي الريف، و100 قطعة ببلاد إفريقية ووهران ومرسى هـــنين، و80 أخرى ببلاد الأندلس فكان مجموع ذلك 400 قطعة[1]، يقال بأن هـــنين أمدته بخمسين سيفنة[2]، ولا يكون والأمر هذا أن تصـــنع الســـفن في المـــوانئ الثانوية، إذن فقد كانت هنين في هذا الوقت مدينة عامرة متطورة إذ نجد بهـــا صناع السفن، وبالتالي كان ميناؤها من الموانئ الهامة في الجهة الغربية، خاصـــة وأن عبد المؤمن بن علي من هذا القطر.

ثم أن الدولة الموحدية لما ضعفت وأفل نجمها اقتســـم الأشـــقاء هـــذه المملكة المترامية الأطراف بينهم، فكانت هنين من نصيب الزيانيين الذين كانت عاصمتهم بمدينة تلمسان، إلا أن الحروب التي كانت تدور بينهم وبين إخوانهم

1- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج2، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب-الدار البيضاء، 1954م، ص128 .

2 - Edouard charton, op-cit, p342 .

المرينيين بين الفينة والأخرى جعلت المدن والقرى المجاورة لتلمسان تصير لـــبني مرين، ومن هذه المدن هنين ولكنها ما تلبث أن تعود إلى مملكتها الأصلية، وفي أحيان أخرى كانت تتغلب عليها القبائل، فمن ذلك مثلا أن إبراهيم بن عبـــد الملك شيخ كومية لما رأى الفتنة قامت بتلمسان استولى على بلاد كوميـــة إلى الساحل بما في ذلك هنين، وبقيت هنين كذلك إلى أن استرجعها السطان الزياني أبو ثابت عثمان[1]، واسترجع كل المناطق التي كانت من قبل تحت يده، بل لقد بلغ الأمر أكثر من ذلك فإن بطني الهراج والخراج ضربوا على هـــنين ضـــريبة الإجازة منها إلى تلمسان، فلا يسير بينهما مسافر أيام حلـــولهم بســـاحتها إلا بإجازتهم وعلى ضريبة يؤديها إليهم[2].

وفي سنة 735هـــ أقبل السلطان المريني أبو الحسن قاصـــدا تلمســـان فتملك أحوازها، ثم إنه أرسل جيوشه إلى الجهات فتغلبت على وهران وهـــنين وغيرها وكان ذلك في سنة 736هـــ[3]، ولما استولى على هذه المناطق لم يدخر جهدا في الإهتمام بها والمحافظة على ساكنيها من غائلة العدو البحري، من ذلك أنه بنى على السواحل محارس ومناظر وذلك من الجزائر إلى مدينة آسفي المغربية، بحيث لو اشتعلت النار في واحدة يتصل خبر دخول العدو في ليلة واحدة أو أقل في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين[4]، ولا شك أن هـــنين كـــان لهـــا حضها من هذه المناظر خاصة وأن بعض سكان هنين الذين ممن كان ديـــدنهم

1- ابن خلدون، مصدر سابق، ج7، ص156 .

2- نفس المصدر، ج6، ص81 .

3- نفس المصدر، ج7، ص339 .

4- محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بو عياد، الشركة الوطنية للنشرو التوزيع-الجزائر، 1401هـــ/1981م، ص398 .

التجوال أخبرونا عن وجود أبراج مشابهة لبرج سيدي إبراهيم[1] تبعد بحوالي 30كلم عن هذا البرج من جهتيه الشرقية والغربية أي جهة بني صاف والغزوات.

ثم لم تبق هنين كثيرا حتى رجعت إلى الزيانيين فقد ذكر ابن خلدون في أحداث سنة 760هـ أن هنين كانت لا تزال تحت حكم يوسف بن عبد الرحمن بن يحيي بن يغمراسن[2]، وهو الغالب عليها كما سبق وأن ذكرنا.

وبقيت هنين ميناءً معروفا ونشطا إلى أن انقرضت الدولة الإسلامية بإسبانيا وبدأ الإسبان غاراتهم على سواحل المغرب، فكان مما أخذوه المرسى الكبير بوهران وذلك سنة 1509م، هذا الاحتلال الذي شكل خطرا كبيرا ليس على التجارة وفقط بل على كامل الساحل، إذ أن استقرارهم في وهران يعني سهولة وصولهم إلى غيرها من المناطق، هذا ما دفع ملك تلمسان الزياني إلى إرسال مدد إلى مرسى هنين لتحصينها والإستعداد للدفاع عنها، وهو الشيء نفسه الذي جعل معظم المعاملات التجارية البحرية تتم على مستوى ميناء هنين[3]، وتطور الميناء وكذا البلدة تطورا ملحوظا، وهنا نجد مارمول يقدم لنا وصفا جيدا للمدينة خلال هذا العهد، كما ظهرت صلات جديدة بين ميناء هنين وموانئ أخرى مثل ميناء البندقية.

وصف الميناء والمدينة (اللوحتين 1، 2): أما عن المدينة فقد كان لها أسوار متينة، وميناؤها صغير محصن من كلا الجانبين ببرجين قويين، وكانت

1- برج سيدي إبراهيم الموجود في أعلى الجبل المطل على هنين من جهتها الشرقية ويطل بدوره على البحر وهو ينسب إلى إبراهيم الآبلي والذي يوجد ضريح ينسب إليه هناك، وإبراهيم هذا هو والد محمد الآبلي شيخ بن خلدون، وهو الذي كان حاكما على هنين عندما دخل أبو الحسن المريني عام 736هـ، أنظر: - ابن خلدون، مصدر سابق، ج7، ص121 .

2- ابن خلدون، مصدر السابق، ج7، ص398 .

3- أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص217 .

المساجد فيها حسنة البناء والدور آهلة بالتجار والصناع، ... خاصة منـــذ أن احتل الكردينال خمينيس وهران والمرسى الكبير، فكان تجار تلمسان يـــذهبون إليها ليتعاملوا مع تجار البندقية فكانت لذلك آهة بالسكان[1]، وبقيـــت هـــنين محافظة على مرتبتها هذه إلى أن ظهر الأتراك العثمانيون على الساحة وبـــدؤوا بمناوشة الإسبان في البحر المتوسط وفي المدن التي احتلها الإسبان بل وحـــتى في السواحل الإسبانية ذاتها، فدخلت تحت طاعتهم جزائر بني مزغنة ومعظم البلدان الساحلية، بما فيها مدينة تلمسان وأحوازها، وتتالت الغنائم على الموانئ بمـــا في ذلك ميناء هنين، مما جعل المدينة مأوى للأتراك العثمانيين وهو ما دفع السكان للإشتراك معهم في الغزو ضد الإسبان بصفة خاصة، وهو الشيء الذي لم يَـــرُق للإسبان مما دفع بملك إسبانيا شارل الخامس إلى أن يأمر قائده دون ألفـــارو دو بازان Don Alvaro De Bazan أن يحتلها، وفعلا أبحر هذا الأخير سنة 1531م من ملقة نحو وهران، يقول مارسي أن عدد السفن كانت سبعة سفن حربية وناقلتين فيما يذكر توفيق المدني أنها إحدى عشرة سفينة حربية وناقلتين، وأخذ ألفارو معه 250 جندي واتجه إلى هنين واحتلها، وهنا أيضـــا نجـــد أن جورج مارسي يذكر أنهم دخلوا المدينة دون مقاومة تـــذكر منـــها ولا مـــن قصبتها، لكن أحمد توفيق المدني يؤكد لنا أن أهلها دافعوا عنها دفاعا مســـتميتا واستدل على ذلك من رسالة كتبها الكردينال إلى الإمبراطور يوم 8 ســـبتمبر 1531م، حيث ذكر أن عدد القتلى الإسبان لم يتجـــاوز أربعـــين 40 أمـــا الجرحي فمائة 100 رجل، ولا يُعقل أن خسائر كهذه تكون من غير مقاومـــة تذكر كما زعم مارسي، بل إن الشعب دافع عن المدينة، كمـــا أنـــه حاصـــر

1- مارمول، مصدر سابق، ج2، ص296 .

الإسبان و لم يترك له فرصة التوغل داخل البلاد[1]، وبقيت بالمدينة حامية مكونة من 700 رجل و25 مدفعا*[2].

كتب الراهب أسقف طليطلة صاحب السلطان المطلق بإسبانيا للإمبراطور عن مدينة هنين "لقد أكد لنا الذين يعرفون البلاد أن لمدينة هنين ومرساها أهمية بالغة، فهنين بلدة محصنة ذات أسوار منيعة ولها قلعة عظيمة، ولا تبعد عن تلمسان إلا باثنتي عشرة مرحلة، وهذا أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحركة التجارية التي يمكن أن تتداولها مع العرب، كما أن امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا بالأخص على إبقاء ملك تلمسان تحت قبضة أيدينا، فهو لن يفكر في مهاجمتنا عندما يرانا قد تملكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة وتحصنا بها، وتصبح وهران أكثر أمانا ولا يأتي سلطان تلمسان لحربنا"[3]، بعد أربع سنوات من احتلال هنين تجهز السلطان الزياني لاسترجاعها مما دفع بالحامية الموجودة بها إلى أن تغادر المنطقة، ولكن بعد أن نهبوها وهدّموا الأسوار والأبراج وحرّقوا الديار وخرّبوها، وكان ذلك سنة 1533م[4]، و لم تعد لها أهميتها ولا ازدهارها بعد ذلك.

آثار هنين كما تظهر الآن مكونة من مدينتين محصنتين الأولى هي القصبة التي نجدها في الجهة الجنوبية الغربية ولعلها هي المدينة القديمة التي كانت على عهد الموحدين، والمدينة الأخرى هي الموجودة في السفح قريبة من الميناء

1- أنظر: أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص218-219؛ Marçais. G, op-cit, p166

*- لا تزال بعض المدافع في قاع البحر ليس بعيدا عن الميناء كما حدثنا بعض الغواصين من أهل تلمسان.

2- مارمول، مصدر سابق، ج2، ص297 . وانظر: - أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص217.
- Marçais. G, op-cit, p166.

3- كما نقل ذلك توفيق المدني، أنظر: - أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص218 . وأنظر أيضا:
- Marçais. G, op-cit, p166.

4- مارمول، مصدر سابق، ج2، ص297 . وانظر: - أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص217- 218 .
ذكر مارسي أن ذلك كان سنة 1534م، ، أنظر:- Marçais. G, op-cit, p166 -

ولا تزال الكثير من أسوارها ظاهرة وسط المباني الحديثة، ذكر مارسي أن الميناء الذي كان محفورا أمام هذه المدينة هو الآن (يعني في وقته حوالي1956م) مكان لحارس الغابات وهو على شكل مستطيل بحوالي 50م على 85م[1]-وهو الآن المكان الذي يجاور بناية الدرك الوطني- ويضيف مارسي أن عقد الجسر قياسه حوالي 8.50م يفتح على البحر في الزاوية الشمالية الشرقية يسمح للسفن بالدخول وهو يشبه باب البحر ببجاية وباب سلا بالمغرب، وكان محفوظا بسور ومحصن ببرجين في القديم[2] ، وبما أن لدينا وصفا لباب البحر ببجاية فلا بأس أن نورد وصفا له لكي تكون لدينا فكرة عن باب البحر بهنين، يذكر الضابط Capitaine Maitrot في التقرير الذي كتبه حول الإستحكامات العسكرية في الشمال الإفريقي عام 1915-1916م أن باب البحر ببجاية يعود لـ 1067م (القرن الخامس الهجري) هو معلم تاريخي مكون من سورين مدعمين بأبراج تطل على مرتفع بحري وعلى حصن عبد القادر[3].

أما الدكتور عزوق فيورد وصفا دقيقا لهذا الباب (أنظر اللوحة3) حيث يذكر أنه أحد الأبواب السبعة ببجاية الحمادية وهو المدخل الرئيسي للسفن، وبنيت الباب على عهد السلطان الناصر بن علناس حوالي 1070م، وكانت السفن في القديم تدخل المرسى فتمر تحت قوس باب البحر المنكسر الذي لا يزال محافظا على حالته إلى اليوم، أطلق عليه الفرنسيون اسم باب

---

1 - Marçais. G, op-cit, p167

-Ibid, p167 . -2

3-- Capitaine Maitrot, **La Fortification Nord Africaine**, **Les Archives Berbers**, Volum I Publication Du Comité D'Etudes De Rabat, Année 1915-1916, Editeur Ernest Laroux, Bonaparte-Françe, 1916, P28 .

سرازين (Porte De Sarazine) وكان متصلا بالباب الجنـــوبي للمدينـــة ويقع في منتصفه وهو الآن منفصل تماما عن السور.

الباب محصور بين السورين الجنوبي والشمالي، عرضه 7.60م وارتفاعه 11.90م وأما عمقه فـــ 4.30م وهو قائم على دعامتين حجريتين سمك كل واحدة 1.10م وارتفاعهما 2.60م، والباب مبني بالآجر والـــدبش، تتكـــون واجهة الباب من عقد منكسر يساعد في تشكيل القبوة الداخلية للباب، هـــذا العقد مبني بآجر مسطح ومملوء وهو موضوع في شكل صفوف أفقية إلى غايـــة ارتفاع 1.50م تقريبا، ثم يليه عقد آخر ليشكل القبو الداخلي، كـــان يتقـــدم باب البحر برجان مربعان بارزان عن مستوى الجدار ما زالت آثارهما بارزة لحد الآن، ولقد استعملا لتشديد الرقابة على الباب وأيضا لتقويته وذلك من خلال تدعيمهما له، أما الفتحة الخاصة بدخول البواخر فيوجـــد انكســـار في أحـــد جوانبها ليسهل دخول السفن دون اعتراض سبيلها أثناء الدوران، كان يعلـــو الباب طريق للمراقبة الدورية فوق القوس الذي يعلو الباب مباشرة[1].

دراسة ميدانية لأسوار وأبراج مدينة هنين:

لنبدأ بقصبة المدينة ثم نعرج على التحصينات الموجودة بالمدينـــة، بخصوص قصبة مدينة هنين(اللوحة2) فإنها توجد في الجهـــة الجنوبيـــة الغربيـــة للمدينة، وهي تشرف عليها من فوق هضبة مرتفعة، جهتـــها-أي القصـــبة- الشمالية على جرف عميق لا يمكن الوصول إليها منه، والجهة الشرقية والغربية عبارة عن منحدر وعر لا يمكن الوصول إليها بسهولة أيضا، أما الجهة الجنوبية- جهة الجبل- فهي التي يمكن الدخول منها إلى القصبة، والقصبة على شكل شبه

1- عبد الكريم عزوق، **المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها (دراسة أثرية)**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، بإشراف عبد العزيز لعرج، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2007-2008م، ص156-157 .

منحرف محاطة بسور من الطابية بعرض حوالي واحد متر، وقياسها حوالي 100م جدار الشمالي، 80م الجدار الجنوبي وهو نفس قياس الجدار الشرقي، أما الجدار الغربي فقياسه 65م، وبخصوص الأبراج فلا نجدها موجودة بالأسوار بل تظهر آثار بعضها، من الجهة الشمالية والغربية، ويوجد برج ركني في الجهة الشمالية الشرقية فتح في جانبه مدخل، وقد زال جزء كبير من السور الجنوبي- جهة الجبل-، كما زال معظم السور الغربي.

يظهر أن للقصبة ثلاثة مداخل، المدخل الشرقي لا يزال باقيا وهو المفتوح في البرج المذكور أعلاه، وهو مدخل بعرض حوالي مترين، وبارتفاع حوالي 3,50م وهو ليس مدخل مباشر في السور وإنما هو عبارة عن فتحة بين التصاق البرج مع السور الشرقي، أما المدخل الثاني فيقع في الجهة الغربية لا يظهر تماما وإنما المكان والفراغ الذي كان يشغله لا يزال باقيا ويظهر في جزء منه بقايا برج، والظاهر أن هذا الباب فتح أيضا كسابقه في مكان التصاق البرج مع السور الغربي، أما الباب الثالث فالراجح بأنه كان بالجهة الجنوبية-جهة الجبل- ولا وجود له ولا للسور في تلك الجهة، ربما تعود القصبة للعهد الموحدي باعتبار هنين مهد عبد المؤمن بن علي، وقد أمدته أثناء حربه مع النصاري بحوالي خمسين سفينة.

مدينة هنين:

تقع المدينة في سفح جبل أسفل القصبة المذكورة أعلاه، وهي أيضا تأخذ شكل شبه منحرف، قياسها حوالي 320م على 350م على ما ذكره مارسي[1]، لا تزال الكثير من أسوارها باقية إلى الآن، مع بعض المداخل، سمك السور يصل كأقصى حد إلى مترين اثنين، ولنبدأ بالواجهة الشرقية لها ثم الشمالية ثم الغربية وأخيرا الجنوبية.

1- Marçais. G, op-cit, p166.

الواجهة الشرقية(اللوحة4): لا يزال معظم سورها باقيا إلى الآن-وإن كان جزء كبير منه مهدما في مكانه- السور في هذه الجهة ينطلق من السفح ويستمر صاعدا إلى أعلى الجبل ثم ينعطف جنوبا ليلتصق مع سور هذه الجهة، عرض السور حوالي 2م يتخلله خمسة أبراج مع حساب الأبراج الركنية، وبه فتحة المدخل التي لا تزال محافظة على أصالتها إلى الآن، يكتنف هذا المدخل برجان يظهر من الداخل والخارج أنها مصمتان، ولكن بإلقاء نظرة عليهما من أعلى-جهة الجبل- يظهر أنها مفرغان من وسطهما، اتساع هذا المدخل حوالي 5م وعرض سقفه حوالي 3م، والبرجان متشابهان طولهما حوالي 7,50م وعرضهما حوالي 6,50م أما ارتفاعهما فحوالي 4,50م، ولا يقع هذا المدخل وسط السور وإنما يقترب إلى الجهة الشمالية أكثر، وذلك بسبب أن السور المبني في الجهة الجبلية أطول من الذي بني في السفح، يمتد السور في هذه الجهة-أي السفح- بحوالي 80م حيث يرتبط مع برج ركني بني في تلك الجهة-الجهة الشمالية الشرقية-.

أما السور الذي يستمر صاعدا جهة الجبل فإنه يختفي مباشرة بعد برج المدخل إلى حوالي 28مترا ثم يظهر مرة أخرى بطول حوالي 7م حيث يلتحم مع برج مفرغ من داخله، طول هذا البرج حوالي 6م وعرضه حوالي 4م وارتفاعه حوالي 13م، بعد هذا البرج نجد بأن السور قد تهدم ولا تزال أجزاؤه المحطمة هناك-وهذا ربما بسبب انزلاق الأرضية في تلك الجهة، كما حدث لكامل السور الجنوبي الذي اختفى تماما- إلى حوالي 28م، ثم نجد سور صغير الطول نسبيا يتصل مع آخِر برج في هذه الجهة وهو برج ركني يتصل مع السور الجنوبي الذي قلنا بأنه تهدم كليا بسبب انزلاق التربة.

والبرج لا يزال قائما بفعل أعمال الترميم والتدعيم الداخلي والخارجي، وهذا البرج الركني يشبه البرج الركني المذكور آنفا-البرج الشمالي الشرقي-غير

أن هذا البرج قد أحيط بسياج من طرف أحد السكان، وقد غُرست حوله عدة أشجار أكثرها أشجار التين، ويظهر بأن هذا البرج مفرغ شأنه شأن أبراج المدخل الشرقي، حيث أن صاحب السياج فتح أسفله وجعله مأوى للشياه- الماعز- وقد لاحظت هذه الظاهرة في هذا البرج بالتحديد منذ حوالي خمس سنوات.

الجهة الشمالية(اللوحة5): بها مدخل فتح في سور هذه الجهة وهو قريب إلى الجهة الغربية منه إلى الجهة الشرقية، عرض هذا المدخل حوالي 11م يكتنف هذا المدخل برجان متماثلان طول كل واحد منهما حوالي 9م وعرضه حوالي 3,50م وارتفاعهما حوالي 11م، وهذان البرجان مفرغان أيضا كما هو حال برجي المدخل الشرقي-كما يظهر من خلال الصور الجوية- ومن برج المدخل إلى الجهة الشرقية نجد سور بطول حوالي 20م يلتصق ببرج آخر قياسه نفس قياس برج المدخل، بعد هذا البرج يستمر السور إلى حوالي 115م ثم يختفي، وبعد مسافة صغيرة بني سور حديث بالحجارة تظهر الطابية-السور الأصلي- في أماكن صغيرة منه، ثم نجد طريق مفتوح معبد مع رواقين جانبيين، يؤدي الطريق إلى مقر البلدية الجديد، المسافة بين انتهاء السور الأول وابتداء السور الثاني أي اكتماله حوالي 122م، حيث يستمر هذا الأخير إلى مسافة حوالي 30م حيث نجد الركني المذكور من قبل-أي البرج الشمالي الشرقي- ويظهر في هذا الجهة ممر الجند واضحا تماما والذي كان يربط بين الأبراج، برج هذه الجهة قد أقيم عليه سياج من طرف السكان، ولم نتمكن من قياسه، وهو فيما يظهر يشبه الأبراج الركنية الموجودة بهذا السور كبرج الركن الجنوبي الشرقي وبرج الركن الشمالي الغربي وبرجي الجهة الجنوبية الغربية، للإشارة فقط فإنه يلي السور من هذه الجهة-أي الشمالية- الحفريتين اللتين أقيمتا من طرف عبد الرحمن خليفة.

ومن البرج الغربي لمدخل هذه الجهة-أي الشمالية- باتجاه الغرب يستمر السور بطول حوالي 20 مترا ثم يلتصق ببرج ركني في هذه الجهة-الركن الشمالي الغربي- طول هذا البرج من الواجهة الظاهرة 9م وعرضه 3,50م والواجهة الأخرى حوالي 7م وهو يلتصق بمساكن في هذه الجهة التي يستمر السور بها إلى الواجهة الغربية، والبرج بشكله هذا يظهر أنه يشبه برج الركن الشمالي الشرقي تماما.

الجهة الغربية- أو البحرية (اللوحة6): هذه الجهة قد التصقت المساكن معها من الجهتين الداخلية والخارجية، و لم نتمكن من قياس السور ولا الأبراج، وللتوضيح فإن عدد الأبراج في هذه الجهة هو ستة أبراج دون حساب الأبراج الركنية كما يظهر من خلال الصورة الجوية، ذكر مارسي بأن هذه الأبراج تبتعد عن بعضها البعض من 14 إلى 15م، يستمر السور باتجاه الجنوب حيث نجد هناك مدخل ركني-جنوبي غربي- للمدينة ينفتح إلى الجنوب، يكتنف هذا المدخل برجان يشبهان برجي المدخل الشرقي شكلا وحجما، وقد أُغلق الفراغ ما بين البرجين بسياج من طرف السكان هناك، فلا يمكن قياسهما، غير أنه يظهر نهما مفرغان من الداخل وذلك لأن أحد البرجين به ثقب في أسفله يظهر من خلاله أن البرج مفرغ من الداخل، وكما يظهر ذلك جليا من خلال الصورة الجوية، ذكر جورج مارسي في وقته بأنه يوجد سور داخلي يوازي السور الخارجي وبه أيضا ممر للحراس[1]، ولا وجود له في وقتنا الحاضر.

مما تجدر الإشارة إليه أن هذا السور لم نلاحظ فيه وجود مدخل يقابل البحر-حسب ما عاينّاه من القصبة العلوية ومن خلال الصورة الجوية أيضا- كما أن هذه الجهة مدعّمة بستة أبراج إضافة على الأبراج الركنية، مما يوحي بأن هذا بسبب الخوف من غائلة العدو الآتي من البحر أكثر منه من المناطق

1- IBID, P168 .

الداخلية، ويظهر هذا أيضا في قول مارسي بأن المدخل محمي مهيأ للـــدفاع في حالة ما إذا كانت هناك محاولة اقتحام للمدينة.

بالنسبة لسور المدينة فإن عرضه كأقصى حد حوالي مترين، ومن خلال جزء الجهة الشمالية يظهر ممر الجند وهذا مما يؤكد على أن السور بأكمله كان بأعلاه ممر للجند وهذا ما كان مشهورا في مدن العصر الوسيط، وهو الشـــيء الذي يساعد المدافعين عن المدينة على حرية التحرك والتنقل والذهاب والإياب والدفاع من على الأسوار.

وتشبه هذه الأسوار أسوار مدينة المنصورة المرينية والتي لا تزال الكـــثير منها باقية إلى اليوم، وهذا ما يعزز القول بأن أسوار وأبراج مدينة هنين من بناء المرينيين ولعله يعود بالتحديد إلى عهد أبي الحسن علي المريني الذي ذكر عنه ابن مرزوق بأنه لما دخل هنين بنى بها مسجدا، وربما يعود تحصينها العســـكري إلى عهد المرابطين[1].

وأما عن ارتفاع السور فإنه متفاوت بسبب ما أصابه من تهدم وانهيـــار في كثير من أجزائه، ويصل أعلى ارتفاع له حوالي 13م، وهو نس الشيء الذي نلاحظه في مدينة المنصورة المرينية، قد أشار إلى ذلك الأستاذ عبد العزيز لعرج، وبخصوص ممر الجند أو مطاف الجند كما يسميه لعرج فإنه يشبه ذلك الموجود بالمنصورة، حيث يصفه لعرج-أي ممر المنصورة- بأنه يبتـــدئ عنـــد ارتفـــاع 7,60م من ارتفاع الحائط ويمتد مع امتداده حول المدينة وعلى نفس المســـتوى من الارتفاع ويقدر اتساعه بـــ 0,90م، يحجزه عن الخارج متراس أو حـــاجز حائطي واقي...ارتفاعه 0,80م وسمكه 0,70م صمم بطريقة تمكـــن الجنـــد المدافعين من تأدية عملهم على مستوى عال من الكفاءة، كما يسمح لهم بحرية

1- عبد العزيز محمود لعرج، مدينة هنـــين تاريها وآثارها، أستاذ بمعهد الآثار جامعة الجزائر، مقال غير منشور، ص2.

الحركة والتنقل عبره للقيام بأعمالهم، وهو على أية حال وسيلة الاتصال الوحيدة بين الجند وتنظيم المراقبة بين مختلف جهات وأجزاء سور المدينة وأبراجها الملتحمة[1]، وبما أن سور مدينة هنين يشبه إلى حد بعيد سور المنصورة فإننا نعتقد بأن ممشى الجند في هنين يشبه الوصف الذي قدمه عبد العزيز لعرج، خاصة وأن الجزء المتبقي الظاهر في جزء من الجهة الشمالية يشبه الوصف المذكور من قبل.

الأبراج:

اعتاد المعمار المسلم أن يجعل الأبراج في أعلى مراكز الأسوار بارزا عنها...وكان من الضروري أن يشمل البرج على شرفات علوية تتوزع-بشكل مدروس-في أعلى واجهاته، لكي يحتمي بها الرماة عند الدفاع عنه، وعلى مزاغل أو مقاذف مفتوحة في جدرانه المطلة على الخارج ذات فتحات داخلية متسعة وخارجية ضيقة، لتمكن المدافعين من سهولة الدفاع عن البرج دون إمكان تعرضهم منها لسهام المهاجمين له من الخارج، يضاف إلى ذلك من مشتملات البرج الممرات الداخلية ومخازن المؤن والأسلحة وصهريج المياه والبئر وغير ذلك[2].

يظهر أن الأبراج في مدينة هنين على نوعين مستطيلة ومربعة الشكل، وعددها المتبقي حاليا في المدينة هو17 برجا، ووظيفة الأبراج تدعيم السور وتقويته في جزئه السفلي بالإضافة إلى الحراسة والمراقبة والرمي في جزئه

1- عبد العزيز لعرج، **المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية دراسة أثرية معمارية وفنية**، ج1، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات، معهد الآثار جامعة الجزائر، 1999م، ص170.

2- عاصم محمد رزق، **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، ط1، مكتبة مدبولي، 2000م، ص34.

العلوي[1]، فأما الأبراج المربعة نجدها متمثلة في الأبراج الركنية بالإضافة إلى برجي المدخل الشرقي وأيضا برجي المدخل الغربي، أما المستطيلة فهي التي نجدها بسائر السور بالإضافة إلى برجي المدخل الشمالي، ويظهر من خلال المعاينة الميدانية بأن الأبراج مفرغة، و لم نتمكن من معرفة مستوى عمق الفراغ الموجود بها، باستثناء أحد أبراج المدخل الغربي حيث وجدنا به ثقبا في أسلفه ويظهر بأن الفراغ يبدأ من مستوى حوالي مترين ويرتفع حتى أعلى البرج-إذا استثنينا مسألة الردم الموجود هناك- وربما يكون هذا هو حال برجي المدخل الشرقي، أما الأبراج المدعمة للسور وكذا أبراج المدخل الشمالي التي تتشابه معها فمن خلال الصورة الجوية يظهر الفراغ الموجود بها غير أنه لا يمكن معرفة مستوى عمقها إذا استثنينا البرج

المدعم للسور الشرقي والذي بقي منه فقط الواجهة الخارجية منه، أما الجهة الداخلية فقد زالت تماما، ويظهر البرج من الداخل أنه مفرغ ومقبب في أعلاه، والظاهر أن الفراغ الذي يعلوه استعمل كممر للحراس، أما أسفله فربما جعل كمخزن للأسلحة أو مكان استراحة الجند.

الأبراج التي تكتنف البوابات والمذكورة من قبل، فمن المعلوم أن الممر الرابط بين البرجين وهو سقف المدخل الأصل فيه أن تجعل فيه فراغات أو ما يسمى بالسقاطات والتي تستعمل لصب الزيت المغلي أو غيره على المهاجمين، هذا بالإضافة إلى وجود مزاغل التي تستعمل لرمي السهام، ثم إن هذا الفراغ الكبير داخل البرجين-وبما أن البرجين مربعين- يسمح بوجود عدد كبير من الحراس أسفل البرج-أي جهته المفرغة- والذين يتناوبون على حراسة المدخل دونما الحاجة إلى الذهاب إلى مركز الجند داخل المدينة أو على أطرافها.

1- نفس المرجع، ج1، ص171.

تجدر الإشارة إلى أن أبراج مدينة المنصورة تشبه هذه الأبـــراج وهـــي أيضا على نوعين مربعة ومستطيلة، فالمستطيلة هي التي نجدها ملتحمة مع محيط السور، أما المربعة فهي التي جعلت في الأركان الأربعة للسور، فأمـــا الأبـــراج المستطيلة فطولها 7م وبروزها عن السور بـــ 3,50 إلى 4م وارتفاعها حـــوالي 14م وهو نفس الشيء الذي وجدناه بأبراج هنين، وقد قدم الأســـتاذ لعـــرج وصفا لهذه الأبراج حيث أنها تتكون من طابقين متراكبين يشغل كل منـــهما فراغ شبه مربع وغطي كل منهما بقبو اسطواني، ويقومان على حائط عمودي على السور الأصلي إلى ارتفاعات مختلفة من برج لآخر، ونجد في بعض أبـــراج هذا النوع أن طابقه الأول بني إلى ارتفاع ثلثي البرج فقط، ويتضح من البحث الأثري والدراسة المعمارية أن هذا التكوين المعماري للأبراج وظيفتـــه تـــدعيم السور وتأمين قوة الأبراج ومتانتها في آن واحد، فضلا عن تكوين طابق علوي له قدرة تحمل الثقل الأعلى لحركة الجند والذخيرة وآلات الحرب.

كما يخلو التركيب المعماري الداخلي للأبراج من أي مظهر للمنافـــذ السفلية فلا باب لها يوصلها بداخل المدينة، مما ينفي معها فكرة كونها غرف أو حجرات لإقامة الجند أو استراحتهم، ذلك أن وسيلة الاتصال الوحيدة بينـــها وبين سطوحها العلوية هو مطاف الجند في السور-ويؤكـــد لعـــرج أن هـــذه الظاهرة موجودة بأبراج مدينة هنين- وبعض الأبراج بها درج يوصل إلى مطاف الجند، وأخرى لا يوجد بها درج ولعله كان يوصل إليها بواسطة سلم أو حبل وذلك لإجبار الحراس على البقاء في أماكنهم.

أما الأبراج المربعة الركنية فإنها تتكون من حجرة سفلية منخفضة مقببة فتح فيها باب على داخل المدينة ويوصل ما بينها وبين مطاف الجنـــد أعلاهـــا بدرج صاعد[1].

1- نفس المرجع، ج1، ص171-173.

وبخصوص أبراج مداخل المنصورة فإن أبراج المدخل الشمالي متشابهان، ويتكون كل برج –على الأرجح ومن خلال الآثار المتبقية لأحدهما– من بـــاب منخفض معقود، ويتصل به منحدر عبارة عن ممر أو دهليز مقســـم إلى تســـعة أجزاء مغطاة بقبو أسطواني، ويوصل الممر إلى مطاف الجند الدائري في أعلـــى السور، ويرجح أن هذا المنحدر كان يقوم على نواة مركزية اندثرت تماما، أمـــا أحد برجي الباب الجنوبي الذي لا يزال يحافظ على شـــكله، فنـــه يتكـــون في الداخل من قاعة مربعة الشكل طول ضلعها يتراوح مـــا بـــين 4,50 إلى 5م الغرض منها استراحة الحراس، ويرجح أنه كان بكل منهما–أي البرجان– باب صغير يفتح على داخل السور.

وعلى هذا نرجح بأن أبراج المداخل بمدينة هنين كانت على شـــاكلة أبراج المنصورة.

اللوحة 1:مدينة هنين مع القصبة.

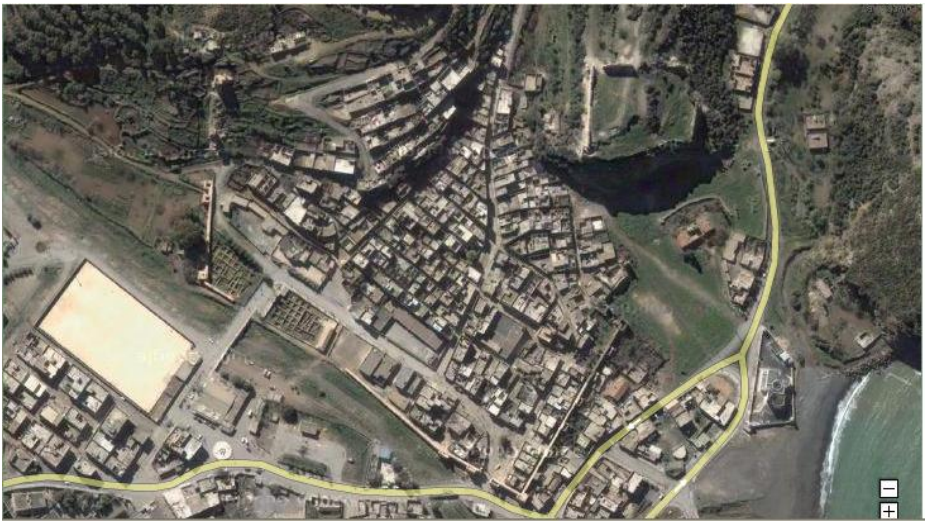

اللوحة2: حدود المدينة القديمة وأسوارها.

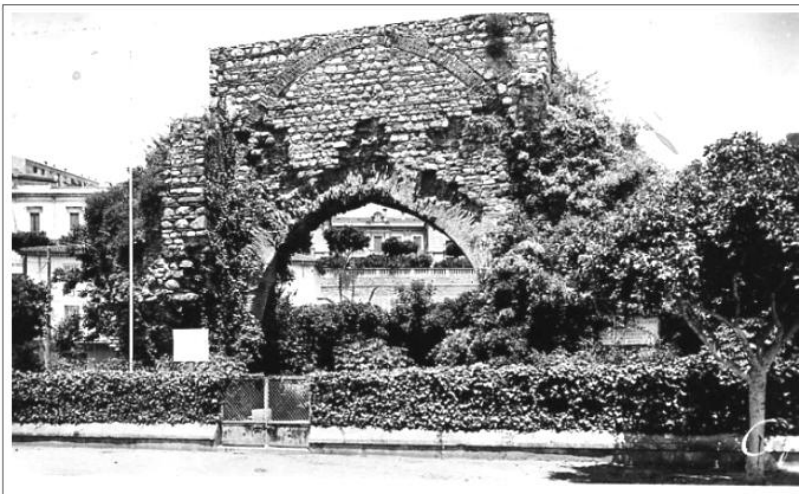

اللوحة3: باب البحر ببجاية في العهد

الفرنسي عن: د. عزوق.

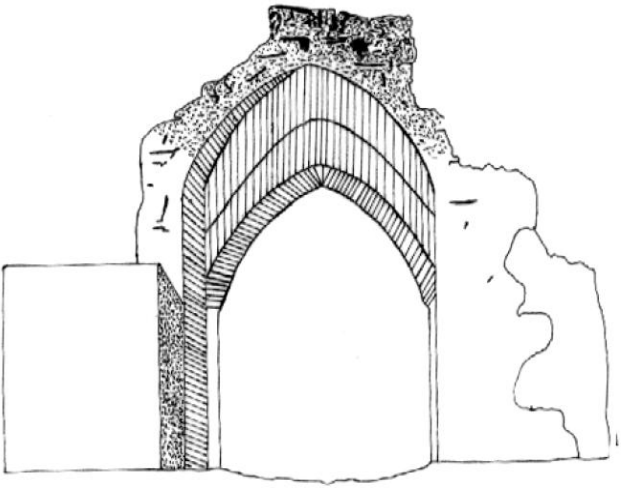

رسم تخطيطي لواجهة باب البحر

ببجاية عن د. عزوق .

اللوحة4: الواجهة الشرقية مع بوابتها وأبراجها.

اللوحة5: الجهة الشمالية.

اللوحة6 الجهة الغربية مع برجي
المدخل الركني الجنوبي الغربي